الفصل التاسع

الانسلاخ عن الطبيعة

أبعدت المسيحية البشرية عن الطبيعة، فعندما أخذوا يتصورون الرب بمثابة قوة متفوقة انفصلت عن العالم المادي، فقدوا احترامهم للطبيعة، ففي نظر المسيحية، أصبح العالم المادي مملكة للشيطان، فقد بدأ مجتمع اعتاد من قبل على الاحتفاء بالطبيعة من خلال أعياد موسمية، بدأ بإعادة ذكريات الحوادث التوراتية، التي لا علاقة لها ولا ارتباط بالأرض، وفقدت العطل كثيراً من روحها الاحتفالية، وتحولت إلى نغمة التوبة والأسف، فالوقت الذي اعتقد فيما مضى أنه يدور مثل المواسم والفصول، جرى تصوره الآن على أنه خط ضيق وطويل، وبرفض المسيحيين الأرثوذكس للطبيعة الدورانية للحياة، أخذوا يركزون على الموت أكثر من التركيز على الحياة.

فالأرضية مترادفة مع اقتراف الذنوب في معظم ثنايا جنبات التوراة، وعلى سبيل المثال قال كولوسيانس Colossians:

«على هذا أمتُ كل ما هو أرضي فيك: اللاأخلاقي، والشغف، والرغبة الشريرة، والجشع التي هي كفر، فبسبب هذه الأشياء وعلى أساسها قادم غضب الرب»[1].

وهناك نص مماثل موجود في سفر جيمس حيث قال: «إن هذا [الحسد المرير، والطموح الأناني في قلوبكم] هو لم ينزل هكذا من الأعلى، لكنه أرضي، وغير روحي وشيطاني»[2]، ووصف بولص أعداء صليب المسيح على أنهم أناس «إلههم بطنهم... وهم الذين يفتكرون في الأرضيات»[3]، وهكذا باتت الرسالة واضحة هي: إن الأرض غير ربانية.

ويقترح الكتاب المقدس أن الرب هو نفسه الذي قضى بوجود العداوة بين البشرية والطبيعة، فالرب عاقب آدم لأنه أكل من شجرة المعرفة المحرمة، وقال لآدم: «.. ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل...»[4].

وبتضاد حاد مع التقاليد القديمة، التي كان فيها الوئام مع الطبيعة هو علامة الربوبية، فهم المسيحيون الأرثوذكس بأن الرب قد أمر بأن تصبح الأرض أجنبية ومعادية.

وعوضاً عن ذلك رُئيت الأرض على أنها مملكة الشيطان، واختارت الكنيسة تمثال بان Pan الإله الإغريقي للطبيعة لتصوير الشيطان، فقد ربط الإنسان الذي له قرنين والذي له حافران، ورجلا تيس مع عدد من شخصيات الخصب، وعدّ من قبل مهماً وأساسياً لحسَن أحوال الريف، فتحت توجيه بان وقيادته ساد اعتقاد بأن جميع المخلوقات الميثولوجية للأرض تعمل بوئام مثل: الجنيات، والأقزام، والشياطين، وكان بان بارعاً بالعزف بالمزمار، ولذلك ساد اعتقاد بأنه كان يملأ الغابات والحقول بموسيقى شجية، وكان معنى اسمه «بان»، «الجميع» و«الخبز»، ولكن خاصة بعد نهاية الألف الأول، عندما قامت الكنيسة بإجازة بعض الصور المحددة للشيطان، أصبح بان مشهور السمعة، يثير الرعب أو الخوف الشديد كتمثال للشيطان.

وأثّر مفهوم تصور فصل الطبيعة عن الرب على معاملة الحيوانات، فقد أعلن اللاهوتي توماس الأكويني في القرن الثالث عشر، بأن الحيوانات ليس لها حياة آخرى، وليس لها حق الوراثة، وأنه «بوساطة القضاء العادل تماماً للخالق، كل من حياتهم وموتهم خاضع لاستخداماتنا»[5]، وغالباً ما راج اعتقاد بأن الحيوانات هي وكلاء الشيطان، وقد كتب لويس ريجنستين Regenstein في كتابه «إعادة تزويد الأرض» المنشور في عام 1991م أنه:

«في القرون العشرة التي تقدمت على القرن الحالي، هناك روايات عن: محاكمة، وتعذيب وإعدام (غالباً بالشنق) لمئات من الحيوانات، وجاء ذلك في الغالب على يد محاكم كنسية كانت تعمل تحت ظل افتراض أن الحيوانات يمكن استخدامها من قبل الشيطان للقيام بهذا العمل»[6].

قرن الإله الإغريقي بان مع الطبيعة والخصب قبل المسيحية.
ثم رسمته المسيحية فيما بعد على أنه الشيطان نفسه

وتولت محاكم التفتيش الاعتقاد المرعب بوجود المستْذئبين (أناس مسخوا ذئاباً)[7]، وفي عام 1484م أمر البابا انوسنت الثامن بشكل رسمي بإحراق الهررة البيتية مع الساحرات، وهي ممارسة استمرت طوال قرون مطاردة السحرة[8].

وأسهم الاعتقاد بأن الحيوانات كانت وكلاء الشيطان في تدمير الإشراف الطبيعي على القوارض، وغالباً ما استهدف المسيحيون المتشددون: الهررة، والذئاب، والأفاعي، والثعالب، والفراخ، والديكةَ البيض، على أنها حيوانات ينبغي إبادتها، وبما أن كثيراً من هذه الحيوانات ساعدت على تحكم الناس بمحاصيل الأطعمة، وبالقوارض الحاملة للأوبئة، فإن إبادتها زاد كثيراً جداً من حدوث الأوبئة وانتشارها[9]، ولكي تزداد الأمور سوءاً، أجازت الكنيسة ما أمر به الأطباء بقتل الهررة، والكلاب أثناء أوقات الطاعون، على أساس الاعتقاد أن هذا سوف يوقف العدوى[10]، وطبعاً كان العكس تماماً هو الحقيقة.

وأمضت الكنيسة قروناً في تحريم إظهار الاحترام لما يتعلق بالطبيعة، وأن العبادة ينبغي أن تتم داخل البيوت بعيداً عن العناصر الطبيعية، ودمرت المسيحية المعابد المفتوحة خارج البيوت، وبنت عوضاً عن ذلك كنائس لها أسقف، وأدانت الكنيسة تقديم الاحترام والتقدير للأشجار وللينابيع، حيث كان الناس يضعون الشموع أو وسائل الزينة، وفي القرن السادس تساءل الأسقف مارتن أوف براغا Braga قائلاً: «ولكن ما الفائدة من إشعال الشموع وإضاءتها عند: الصخور، أو الأشجار، أو الآبار، أو مفترق الطرق، إذا لم تكن لعبادة الشيطان»[11]، وأصدر التجمع العام لرجال اللاهوت التابع لشارلمان في عام 789م مرسوماً جاء فيه:

«إنه بالنسبة للأشجار، والصخور، والينابيع، وأي مكان آخر يضع فيه الناس الجاهلون مصابيح، أو يصنعون أشياء مدركة وملاحظة أخرى، نحن نبين إلى كل واحد بأن هذا العمل هو الممارسة الأكثر شراً، وهي ممارسة ممقوتة من الرب، وبناء عليه، إنهم حيثما وجدوا، ينبغي نزعهم وتدميرهم»[12].

وحاولت قصص أن توضح أن عناصر القدرة في الأشجار، والأحراش، والطبيعة، قد خضعت للمسيح، ويقال بأن القديس مارتن أوف تور Tours وقف في القرن الخامس تحت شجرة صنوبر محترمة، عندما أمر بقطعها، وعندما كانت الشجرة هاوية فوقه، رسم علامة الصليب، فرفعت الشجرة نفسها، ثم سقطت ثانية

بعيداً عنه، وهناك حكاية مماثلة من القرن الثامن تعلقت بالقديس بونيفيس Boniface في هسي Hesse، فعندما كان يقوم بقطع شجرة سنديان مقدسة، قيل بأن الشجرة انفلقَتْ إلى أربعة أقسام متساوية، ووقعت على الأرض على شكل صليب، ويوجد في مخطوط من القرن الثاني عشر مشهد مرسوم يصور امرأة عمياء حاملة فأساً ومتوجهة إلى شجرة، وعلى الرغم من وجود روح الشجرة الذي قام مرعوباً، فإن أسقفاً وقف إلى جانبها يبارك عملها، وعوضاً عن أن تعاني المرأة من أية نتيجة مضرة، فإنها استردت بصرها[13]، وتبعاً لمثل هذه الحكايات، فإن القوة المتفوقة للأرض قد خضعت للقوة المتفوقة لرب الكنيسة المسيحية.

ولكن حتى عصر الإصلاح الكنسي، ومطاردة السحرة، لم يؤمن معظم الناس بهذا، وحيث إنَّ الكنيسة المبكرة لم تكن قادرة على إقناع الناس بغياب الرب وبعدم وجوده في الطبيعة، قامت عوضاً عن ذلك بدمج جميع جوانب عبادة الطبيعة بالذات وأدانتها، ومثل هذا ووفق الطريقة نفسها قامت بتطوير سحر كنسي، عندما لم تتمكن من محق السحر الوثني وإزالته، وهكذا وجدت صور وتماثيل ونماذج شخصيات الخصب، وكانت بالعادة من الذكور، ولها قرون في بعض الأحيان، ومغطاة أحياناً بأوراق نباتات، وبنباتات متقيئة، وجدت سبيلها إلى صور الأيقونات المسيحية، وإلى وسط رسوم المخطوطات، وأصبحت أوراق الأشجار موضوعاً دائم التكرار في الفن المسيحي، وغالباً ما ظهرت الأشجار المبجلة بشكل تقليدي في ساحات الكنائس[14]، ونحتت أعمدة الكنائس حتى تشابه جذوع الأشجار، لا بل ربما في بعض الأحيان لتماثل حتى شجرة الحياة الأسطورية[15]، وفي محاولة من الكنيسة لاستيعاب الناس الذين كانوا ما يزالون يظهرون تبجيل الطبيعة، دمجت الصنم نفسه واستوعبته، وهو الصنم الذي أصرت الأرثوذكسية على ربطه بالشيطان.

أيام العطل:

واستوعبت الكنيسة أيضاً الأعياد السنوية الوثنية وأيام العطل، مدعية بأنَّها مسيحيَّة، وكان الناس قد اعتادوا على وضع علامات للفصول باحتفالات وطقوس دمجت نشاطاتهم مع دورات الأرض، ووضعت الكنيسة أيام العطل المسيحية حتى

تتماشى مع هذه الأعياد الأقدم، على أمل الحصول على قبول أسهل، واعتراف بالديانة الجديدة، وفي الوقت الذي كانت فيه المعاني التقليدية لمعظم أيام العطل هذه لا علاقة لها بالمسيحية الأرثوذكسية، تساهلت الكنيسة عادة تجاه الطقوس القديمة، وفعلت ذلك أثناء قيامها بتعليم المعاني التوراتية الجديدة، وفقط أثناء الإصلاح الكنسي أصرت المسيحية الأرثوذكسية على أن التوجه الطبيعي القديم بمنح الأهمية لأيام العطل قد أزيل.

فقد جرت العادة على أن تمتلك دورة العام عند كل تغير في الفصول الأربعة، وكذلك ذروة كل موسم، أهمية عظمى، وهكذا كان الانقلاب الشتوي، واليوم الأشد ظلاماً في السنة، وقتاً لميلاد جديد، وغالباً ما جرى تمثيله ورمز إليه بميلاد شخص ذكر سنوي يمثل الخصوبة، وهو تمثيل لشمس السنة الجديدة، وعدت ذروة الشتاء على أنها الموعد الوسط بين الانقلاب الشتوي والاعتدال الربيعي، ووقتاً لتغذية الحياة الجديدة، فالربيع بات على وشك تشجيع الخصوبة، ويكون ذلك عندما ستتحد الأرض والشمس، فتجلب الأرض المواسم الوافرة، والثراء الكبير من الصيد، ومن الانقلاب الصيفي وخلال الخريف تنتقل طاقة الشمس إلى المحاصيل، وكانت الاحتفالات بذروة الصيف وبالاعتدال الخريفي احتفالات بموسم السنة وخصبها، وكانت نهاية العام عندما تصبح الحقول في حالة سبات، وعندما تبدو الأرض وكأنها تموت في ذروة الخريف، كان هذا الوقت هو موعد تشريف الميت وتكريمه، وإطلاق سراح الماضي.

ولدى قيام الكنيسة المبكرة بتبني هذه الأعياد، على أنها مسيحية، استهدفت من كلٍّ ذلك نيل ولاء الناس وكذلك تسخير حيوية مثل هذه الأعياد واستثمارها، ففي الوقت الذي لا شيء فيه يشير إلى التاريخ الفعلي لميلاد يسوع، جرى بسهولة ربط هذه الحادثة بأعياد الانقلاب الشتوي، وعلى سبيل المثال كان أيضاً الاحتفال الروماني بعيد ميلاد إله الشمس ميثْرا، يجري في الخامس والعشرين من كانون الأول، وفي مصر وسورية لما قبل المسيحية شارك في طقوس الإنقلاب الشتوي أناس توجب عليهم العودة إلى معابد ومزارات تشبه داخل الرحم، وذلك حتى منتصف الليل، وهو الموعد الذي يخرجون فيه معلنين قائلين:

تقترح هذه اللوحة الخشبية من العصور الوسطى نموذجاً للحكايات التي حاولت الكنيسة نشرها آملة من وراء ذلك إقناع الناس بالتخلي عن احترامهم للطبيعة، ففي مثل هذه الحكايات يقدم المسيحيون على قطع الأشجار المقدسة مع عدم احترامها، لإظهار المدى الذي خضعت فيه الطبيعة وقواها إلى رب المسيحية.

«لقد ولدت العذراء واشتعل الضوء»[16]، ولم تفلح أعمال الاستنكار ضد الاحتفال بيوم العطلة هذا من قبل تيرتوليان Tertullian، والقديس أوغسطين، والبابا ليو Leo الأول[17]، فكان أن تبنت الكنيسة موعد الانقلاب الشتوي، وجعلته يوم عيد الميلاد، وبسهولة جرى ربط عيد ميلاد إله الشمس في يوم الانقلاب الشتوي، بعيد ميلاد ابن الرب.

وصار موعد الاحتفال المصري بعيد الانقلاب الشتوي، الذي هو عيد ميلاد أوزيريس Osiris، الذي هو التمثيل اللاهوتي للخصوبة الذكرية، والذي كان يتم في السادس من كانون الثاني، صار الآن عيد الغطاس المسيحي[18]، وأعلنت الكنيسة أنها تهتم كثيراً في إظهار لاهوتية يسوع، ومع ذلك فإن روح كل من عيد الميلاد، وعيد الغطاس المسيحي احتويا على الاحتفالات غير المحددة التاريخ بالانقلاب الشتوي، وكانت الفوارق فيما بينهما عائدة بصورة أكبر إلى الفوارق بين التقاويم، ولم تكن فوارق في المعنى، وقد كان التقويم المصري متأخراً اثني عشر يوماً عن التقويم اليولياني[19]، وهكذا لم تقع تواريخ الكثير من أيام العطل الدارجة، تماماً في موعد الانقلاب، أو الاعتدال، أو ذروة الفصل، لسبب مشابه، وقد اختلفت وسائل تحديد الوقت اختلافاً هائلاً، فتقويمنا الحالي لم يجر تبنيه بشكل كامل في إنكلترا حتى عام 1715م، وفي روسيا حتى عام 1919م، وفي الصين حتى عام 1949م[20].

ووجدت الاحتفالات التي تحدد ذروة فصل الشتاء، أيضاً طريقها إلى المسيحية، من ذلك مثلاً نجد أن الاحتفالات في الثاني من شباط أو في الرابع عشر منه، وهي احتفالات كانت تقام على شرف الوجوه الأنثوية اللاهوتية مثل بريجيت Brigit وفينوس Venus، اللتان شجعتا: الفن، والشعر، والمداواة، والنار، والحكمة، نجدها قد غدت مثبتة في التقاويم المسيحية[21]، وعوضاً عن ذلك بات عبارة عن نهاية مدة أربعين يوماً احتاجتها العذراء حتى تتطهر بعد ولادتها.

وتبنت الكنيسة احتفالات موعد الاعتدال الربيعي، بجعله عيداً للفصح، فهذا الوقت كان واحداً من أوقات الاحتفال القائمة بقيامة الشمس، والعودة إلى الألق والعظمة، ولم يتطلب الاحتفال بقيامة ابن الرب تغييراً كبيراً في الفهم والاعتقاد، وفي الحقيقة كانت احتفالات عيد الفصح مشابهة تماماً للاحتفالات الأقدم ـ خاصة الاحتفالات التي تتعلق بالاعتراف بقيامة أدونيس البابلي، وأبولو الإغريقي، وأتيس

Attis الروماني . ونذلك قامت نقاشات مريرة ضد ادعاء الوثنيين بأن الاحتفالات بعيد الفصح ما هي إلاّ تقليد كامل للتقاليد الاحتفالية القديمة[22] ، ووجدت الاحتفالات بالاعتدال الربيعي بإشعال النيران في الفضاء ، والتي جرى بالأصل تحريمها من قبل الكنيسة ، وجدت طريقها إلى داخل الطقوس الرسمية في روما في القرن التاسع[23] ، واستمرت رموز الخصب التي كانت مرتبطة بالربيع ، مثل البيض ، والأرنب الولود بشكل غير معقول والخصب كثيراً ، استمرت حية وموجودة أيضاً .

التبني المسيحي	تقاليد ما قبل المسيحية أو الوثنية	الموعد في العام
عيد الميلاد عيد الغطاس	ولادة الأنثى للشمس أو ولادتها لذكر يمثل شخصية الخصوبة ، وغالباً ما جرى بهذا العيد إحراق قطع من الخشب كبيرة ، وبمسيرات مشاعل ، وبشجرة مزينة .	الانقلاب الشتوي
عيد طهارة مريم العذراء	وقت تغذية ، وإلهامات تشريفية وخلاقة . ممارسات تتضمن احتفالات بالنور . ارتداء أقنعة حيوانية وجلود حيوانية أيضاً على أمل تدشين موارد العام المقبل .	فصل الشتاء
عيد الفصح	قيامة الشمس وكسبها التفوق والعظمة على الليل - احتفالات لها علاقة بالخصوبة ، تتضمن رموزاً مثل البيض ، والأرنب الولود .	الاعتدال الربيعي
عيد العنصرة عيد الصعود	زواج الأرض والسماء الذي سيأتي منه موسم العام ، وغالباً ما يجري الاحتفال به برقص حول سارية ، وبالتزين بأوراق نباتات جديدة .	فصل الربيع
عيد القديس يوحنا	ذروة ضوء الشمس الاحتفال بنيران كبيرة في الفضاء - إحراق بقايا أعشاب والتزين بالورود .	الانقلاب الصيفي
عيد رفع مريم	انتقال طاقة الشمس إلى المحاصيل - مباركات طقوسية للمحاصيل - والأعشاب . والحقول والجبال والمحيط . وصنع تماثيل من الدمى أو القمح أو الحبوب .	فصل الصيف
عيد القديس ميكائيل عيد ميلاد مريم	وقت لتقديم الشكر على المحاصيل - ولائم وتزيينات بفواكه الخريف - والحبوب ، والخضار .	الاعتدال الخريفي
عيد جميع الأرواح . عيد جميع القديسين	اعتراف باكتمال العام - إكرام الموتى وتشريفهم - تشريف الماضي وإطلاق سراحه .	فصل الخريف

ومع ذلك، حدث مع انتشار المسيحية، أن احتفالات الربيع والصيف أخذت تفقد معناها الأصيل بالتدريج، وهكذا غدا تاريخ ذروة الربيع عيد العنصرة أو أحد الشعانين، وهو احتفال ليس بناء على الأخذ بالخصوبة، بل احتفاء بحادثة توراتية عندما أخذ الناس يتحدثون بلغات متعددة (بلبلة الألسن) وتكريماً لذكرى ميلاد الكنيسة، ولم يعد الانقلاب الصيفي يعدّ عيداً بوصول ضوء الشمس إلى الذروة، بل صار بالحري عيداً على شرف القديس يوحنا(*) الذي عمّد المسيح، وغدت الاحتفالات بفصل الصيف أعياداً من أجل العذراء مريم، مثل «يوم عشبة ستنا مريم» ويوم «عيد الصعود» أي اليوم الذي «صعدت» فيه مريم إلى السموات[24].

ودمجت احتفالات الاعتدال الخريفي وتطورت حتى صارت تعرف باسم عيد القديس ميكائيل (عيد ميكائيل رئيس الملائكة، قاهر الشيطان) وعيد ميلاد مريم، وبقيت أعمال الشكر والامتنان من أجل المواسم، ومباركة الأعشاب الطبية للسنة جزءاً من أيام عطل الخريف هذه، فحتى هذه الأيام يجري تغطية مزارات مريم بسنابل القمح، ممثلاً بذلك الصور الوثنية للقمح الذي يتوفر في الخريف[25].

وكان يعتقد أن ذروة الخريف، ونهاية دورة الأرض السنوية، هو الوقت الذي يصبح فيه الحجاب الذي يفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، قد أصبح رقيقاً جداً، وعلى الرغم من محاولات الكنيسة لمنع الاحتفال بيوم العطلة هذا، حدث أنه مع القرن التاسع جرى نقل عيد جميع القديسين إلى أوّل تشرين الثاني ومع عام 1045م بدأت ديرة كلوني بمراعاة هذا الوقت وعدّه «يومَ جميع المغادرين»[26]، واستمرت الطبيعة المبكرة المتوجهة نحو أهمية ومكانة الفصل بكمال أكبر، وذلك من خلال الاحتفال بعيد جميع القديسين.

(*) الصحيح النبي يحيى، وتسميته حنا أو يوحنا ليست صحيحة، لأن اسم حنا اسم قديم الاستخدام معناه الحنان، وأما يحيى فاسم فريد جديد معناه الحياة، لأنه ولد بإعجاز من أبوين عجوزين، مثلما ولد المسيح عليه السلام من دون أب.

انتقل الكثير من التبجيل والتقديس الذي كان موجوداً قبل المسيحية للعناصر الأنثوية اللاهوتية إلى عبادة مريم العذراء، وكانت المحصلات قيام عطل كثيرة على اسمها من خلال دورة كل عام.

وقام الوثنيون أيضاً بمراعاة دورات القمر، وغالباً ما تضمنت هذه الاحتفالات تقديم التبجيل للجوانب الأنثوية من الرب، وأدان اللاهوتيّون المسيحيون

الاحتفالات التي راعت دورات القمر واعتمدتها، وهي التي عرفت باسم - La Luna، وعدتها أعمالاً جنونية أو «حماقات كبرى Lunacy»، وفي الوقت نفسه أدان القديس أوغسطين رقص النساء تشريفاً للقمر الجديد، وعدّه «وقحاً وقذراً»[27]، وعندما لم تتمكن الكنيسة من إيقاف مثل هذه الاحتفالات، دمجتها من جديد في التقويم المسيحي، وكما جرت العادة تحت غطاء تشريف مريم وتكريمها، واعترفت الكنيسة بشكل رسمي بالتواريخ التالية:

الثامن من كانون الأول، هو اليوم الذي حملت فيه القديسة حنة بمريم، والثامن من أيلول هو اليوم الذي ولدت فيه مريم، والخامس والعشرين من آذار هو اليوم الذي حملت فيه مريم بيسوعَ، وهو اليوم الذي أعلن لها بذلك، ولذلك يدعى أيضاً بعيد البشارة، وكان اليوم الذي تطهرت فيه مريم من بعد الولادة هو اليوم الثاني من شباط، أو الرابع عشر، وكان اليوم الذي صعدت فيه مريم إلى السماء، أو عيد الصعود هو الخامس عشر من آب، وكانت الاحتفالات غير الرسمية بمريم حتى أكثر من هذا بكثير.

الاحتفال:

وفي الوقت الذي أعانت فيه عمليات تبني الأعياد ذات التوجهات الطبيعية على حشد الأعضاء للكنيسة المبكرة، فإن الروح الاحتفالية لهذه الأعياد قد تعارضت مع وقار الأرثوذكسية وزهدها، وعلى هذا الأساس حذر في القرن السادس عشر غليوم بريكونت Briconnet بقوله: «إن أيام العطل ليست لمتعة الجسد، ولكن من أجل إنقاذ الروح، وليست من أجل الضحك والمرح، بل من أجل البكاء»[28]، ومع الإصلاح الكنسي حاولت كل من الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية أن تزيل ليس فقط التوجهات الطبيعية في ممارسات الأعياد، بل أن تزيل أيضاً روح السرور التي رافقتها، فقد توجب الآن أن تكون أيام العطل أيّامَ تذكّرٍ دقيقة لوقائع توراتية، لا علاقة لها ولا ارتباط بفصول الأرض ومواسمها.

وتولت الكنيسة تحديد الممارسات الوثنية على أنها هي الممارسات التي تظهر فيها إما السرور والبهجة بالطبيعة أو الارتباط بها، وجرى ربط احترام الطبيعة ربطاً قريباً جداً مع التعبير عن المتعة والفرح، حتى إنَّ القديس أوغسطين اعتقد أن كلمة

ابتهاج Jubilation مشتقة من كلمة Jubilus التي هي أغنية كـان يغنيها الذين يرعون الكروم والزيتون ويعتنون بها[29]، وذكر المجمع الكنيسي الذي عقد في روما في القرن التاسع بأن «كثيراً من الناس، ومعظمهم من النساء يأتون إلى الكنيسة في أيام الأحد وفي الأيّام المقدّسة ليس للمشاركة في القدّاس بلْ للرقْص وللغناء بأغـان بذيئة وعمل الأشياء الأخرى مثل الأعمال الوثنية»[30]، ووصف الـ "Catechisme de Meaux" الممارسات الوثنية كما يلي:

«الرقص حول النار، واللعب، وإقامة الولائم، وغناء أغان عامية، ورمي الأعشاب فوق النيران، وجمع الأعشاب قبل منتصف الليل، أو قبل الصباح، وارتداء الأعشاب، والاحتفاظ بها طوال العام، وإبقاء الجمرات أو الرماد الناتجة عن النيران، والاحتفاظ بها، وما شابه ذلك»[31].

وكان الرقص مبغوضاً بشكل خاص من قبل المسيحيين الأرثوذكس، فقد جرى في القرنين السادس والسابع تحريم الرقص الكنسي، لأنه مثير جداً، وممتع كثيراً بوساطة النساء، وقد ادعى قضاة محاكم التفتيش بأن كلاً من النساء وعباد الشيطان يرقصون معاً[32]، وعدّ الرقص علامة على انحطاط روحي بالنسبة لرجال اللاهوت المتطهرين في إنكلترا الجديدة، فهم الذين نشروا في عام 1684م منشوراً تحت عنوان «سهم ضد الرقص المدنس والمختلط سحب من جعبة الكتابات المقدسة»[33]، وحذرت ترنيمة تبشيريَّة من القرن الثامن عشر من أن الشيطان:

. . . . ينزلق ويتغلغل خلال جسد
الراقصين من نساء ورجال
ليوقعهم في شباك
لهيب نيرانه الحامية والشبقية[34].

ومن المؤكد أن المسيحيين لم يوافقوا جميعاً على موقف الأرثوذكس ولم يتفقوا معهم، ففي أعمال يوحنا - على سبيل المثال - رقص يسوع وقال:

«إلى العالم يعود الرقص، والذي لا يرقص لا يعرف ماذا حدث، والآن إذا ما اتبعت رقصي، شاهد نفسك في رقصي»[35].

وبالنسبة إلى الأرثوذكس لا الطبيعة، ولا المتعة الجسدية، كانت غير موجودة مع الحضور الرباني، لأن كليهما كانا من الشيطان، وكانت الكنيسة قد أدانت منذ زمن طويل المتعة الجسدية على أنها عمل غير رباني، ووفق هذا أعلن في القرن الثاني عشر، أسقف أوف تشارترز Chartres السيرجون أوف سالسبري Salisbury :

«إنه باستثناء المجرد من العقل والمشاعر، هو الذي يقبل بالمعتة الجسدية نفسها، لأنها محرمة، وملطخة بالقذارة والدنس، وهي أمر يشجبه الناس، ويدينه الرب من دون أدنى ريب»[36].

وبشأن أيام العطل التي فيها مرح وسرور، كتب أسقف أوتون Autun في عام 1657م :

«إن من غير اللائق تكديس أيام العطل المتوجبة، خشية من تكديس مناسبات اقتراف الذنوب . . »[37].

وجاء مع الإصلاح الكنسي طلب قطع أو إزالة الاحتفالات وأيام العطل ذوات السمات الطبيعية، وساد الاعتقاد بأن الضحك والمرح عمل لا يليق بالمسيحيين، لأنهم مشغولون في صراع يومي مع الشيطان، وقد أراد المسيحيون الأرثوذكس وطلبوا تحريم الرقص حول السارية في العراء مع رقص يوم الأحد، وحظر عزف موسيقى القرب والمهرجين الذين يرافقون مسيرة العرس إلى الكنيسة، ومنع رمي الحبوب، وتوزيع الدمى على الفقراء، على أساس «أن ذلك لا علاقة له بالدين وأوهام وكفر»[38]، ورأى قضاة إنكلترا الجديدة ورجال اللاهوت فيها أن احتفالات الزواج ينبغي أن لا تنتهي «بالفوضى والضجيج أو بانعدام النظام والانضباط غير المعتدل»[39]، ومنع قانون صدر في عام 1639م عادة «شرب نخب، أو الشرب بصحة، على أساس أن ذلك ممارسة كافرة مقيتة ومرذولة»[40]، ويتوجب على الإنسان عدم البقاء في الحانة بعد الاجتماعات، وينبغي عدم انحدار المناسبات ذوات التوجهات الطبيعية مثل قشر حبوب المحاصيل إلى مناسبات مرح وفرح[41].

وأمر البارلمان الإنكليزي في عام 1647م بوجوب التوقف عن الاحتفال بعيد الميلاد مع أيام العطل الوثنية الأخرى، وعدم مراعاتها، وجدد في عام 1652م

جرى منْع المسيحيين الأرثوذكس، خاصة في عصر الإصلاح الكنسي من إقامة الكثير من الولائم الكبيرة والاحتفالات، وفي بعض البلدان جرى حتى تحريم الاحتفال بعيد الميلاد مع أعياد وعطل وثنية أخرى.

مرسوماً بارلمانيّاً بأنه «لن يكون هناك بعد الآن احتفال في الخامس والعشرين من كانون الأول، وهو ما يدعى عموماً باسم عيد الميلاد، وأن لا يكون هناك احتفال مهيب أو ممارسات في الكنيسة تتعلق بهذه المناسبة»[42]، وتوجب بقاء الأسواق والمخازن مفتوحة في يوم عيد الميلاد[43]، وفي إنكلترا الجديدة حيث عدّ الاحتفال بعيد الميلاد جريمة عدوانية، وبقي الحظر قائماً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان إذا ما أمسك شخص وهو يحتفل بعيد الميلاد، كان هذا الشخص عرضة لأن ينتهي به الأمر على أداة التعذيب الخشبية، أو الربط إلى عمود الجلد[44]، وغير أصحاب المعامل والورشات بداية ساعة العمل إلى الساعة الخامسة صباحاً في يوم عيد الميلاد، وصدر تهديد بالإغلاق والطرد للذين يتأخرون، وحتى عام 1870م كان الطلاب في بوسطن، الذين لا يحضرون إلى المدرسة العامة في يوم عيد الميلاد، يعاقبون بالطرد العلني[45].

وجرى إيقاف الممارسات التي تتعلق بأيام عطل لها ارتباط بالطبيعة، وأوقف المسيحيون الأرثوذكس مسيرات الكنيسة حول المدن والحقول، التي كان المقصود منها مباركة المحاصيل، وطلب تغيير المناخ أو التماس الحماية ضد الحشرات، وقمعوا ممارسة جمع أغصان الأشجار، وأوراق الخضار، والورود لأخذها إلى الكنيسة[46]، وفي عام 1683م أضيف ملحق إلى دستور أسقفية آنسي Annecy، كان مما جاء فيه:

«نحن نأمر - تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي - بقمع والإزالة إزالة كاملة المشاعل والنيران التي جرت العادة بإشعالها في الأحد الأول من الصيام الكبير.. والحفلات التنكرية.. التي هي بقايا محضة ومهينة من الوثنية»[47].

ودخلت الجهود لإزالة الوثنية في محاولة لإبعاد - إبعاداً نهائياً - الاحترام والمتعة بكل من الطبيعة والنشاط النسائي، وليس مدهشاً أن صنع التماثيل ورسم الأيقونات التي لها علاقة باحترام الطبيعة وتبجيلها كانت لها نغمة عالية جداً بما يتعلّقُ بممارسة الجنس، وغالباً ما استخدم فرانسيس بيكون Francis Bacon الذي كان هدفه هو «السعي لتأسيس السلطة والتحكم من قبل الجنس البشري نفسه بالعالم»، ما استخدم مثل هذه التماثيل والأيقونات[48]، وكتب روبرت شيلدريك Rupert Sheldrake في كتابه «عودة ولادة الطبيعة»:

«إن استخدام المجازات المشتقة من التقنيات المعاصرة والمنبعثة منها، في أعمال الاستجواب والتعذيب الممارسة ضد السحرة، أعلن [فرانسيس بيكون] أن الطبيعة تظهر بذلك نفسها وتعرضها لنفسها، وينبغي أثناء التقصي والاستجواب الذي تقوم به محاكم التفتيش بحثاً عن الحقيقة، وعن أسرار الطبيعة، الدخول إلى الحفر والزوايا والولوج فيها، فالمتوجب هو ربط الطبيعة وتقييدها في الخدمة، وجعلها عبداً، ووضعها قيد الاعتقال، ومن الممكن - لا بل ينبغي - تشريحها وتحليلها بالفنون التقنية، وبيد الإنسان، ومن الممكن إرغامها على الخروج من حالتها الطبيعية، وعصرها وقولبتها، وبذلك تقابلها المعرفة البشرية والسلطة الإنسانية بمثابة قوة واحدة»[49].

وهكذا توجب الآن قهر الطبيعة وليس التمتع بها، وبلاشك عدم احترامها وتبجيلها.

وباتت نظرة التقطيب وانعدام الابتسامة وسيلة تمييز المسيحيين، وكان سلفاً في القرن الثاني عشر أن حاول راعي الدير: روبرت أوف دوتز Rupert of Deutz أن يدافع عن كآبة أيام العطل المسيحية بقوله:

«إنه ليس صوماً هو الذي يجعلنا نشعر بالحزن، أو يجعل قلوبنا مظلمة، بل إنه بالحري هو الإشراق المقدس لوصول روح القدس، لأن حلاوة روح الرب وطلاوته تجعل المؤمنين يزدرون الطعام الأرضي»[50].

ومع القرن الثامن عشر ساد الاعتقاد بأن «الضجر» و«التقوى» هما متناظران[51]، ووصف ديدروت Diderot في عام 1764م الحالة القصوى لانعدام السعادة المسيحية بقوله:

«ما هذا الصراخ، وما هذا العويل، وما هذا البكاء، الذي سجن جميع هذه الجيف المخيفة؟، ما هي الجرائمُ التي اقترفها جميع هؤلاء التعساء؟ فبعضهم يضربون صدورهم بالحجارة، ويمزق آخرون أجسادهم بالكلاليب، ويضربون صدورهم بالحديد، فالندم، والألم، والموت كامن في أعينهم..»[52].

عندما وصل الناس أثناء عصر الإصلاح الكنسي إلى تصور بأن الأوقات الطبيعية، مرتبطة بخط مستقيم، وليس بالدورات الفصلية، صار الوقت مديراً وموجهاً لا يرحم، يتطلب من كل واحد صرف كل لحظة من وقته في أداء واجباته وما تقرر عليه، وتمثل هذه اللوحة العائدة إلى القرن السادس عشر قيام الوقت بمكافأة النشطاء ومعاقبة الكسالى، وقادت فكرة الوقت حسب خط مستقيم إلى إرعاب الكثيرين بجعلهم يعتقدون أن هناك فرصة واحدة في الحياة للالتفات نحو الرب، وليست هناك فرصٌ متعددة، حسبما هو موجود في فكرة الوقت الدوراني.

وعقب أحد الناس أثناء الإصلاح الكنسي على أحوال إنكلترا بقوله: «إنها ليست انكلترا المرحة أبداً، منذ أن ضغط علينا للقدوم إلى الكنيسة»[53].

الوقت:

شجعت المسيحية مفهوماً جديداً عن الوقت، وهو مثل ما تقدم لا علاقة له بدورات الطبيعة، وكان معظم الناس حتى الإصلاح الكنسي قد فهموا الوقت على أنه دوراني، وعلى كل حال تبنى المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي فكرة القديس أوغسطين بأن الوقت خط مستقيم، ووصف أوغسطين نظرية الكفار بالدورات Ciruitus Temporyum كما يلي:

«. . *يستهدف الكافر بهذه المناقشات لغم إيماننا البسيط، وجرنا من الطريق المستقيم وإبعادنا عنه، وإرغامنا على السير معه على الدولاب*»[54].

ومثلها مثل نظرية الحلول، أنكرت نظرية دوران الوقت فرادة يسوع المسيح، وسرمديته[55]، ذلك أنه إذا كان الوقت لولبياً دائرياً، فهو يقدم فرصاً متوالية للنمو والتغيير، وعندها يمكن لروح يسوع المسيح وقيامته، يمكن نظرياً أن تنطبق على أي إنسان، وأن يجربها أي واحد في أي وقت، بصرف النظر عن التعاقب الرسولي، أو المرتبة اللاهوتية، وعلاوة على ذلك إذا كان الوقت دورانياً، يمكن للحياة أن لا تكون متضمنة لفرصة واحدة فقط للاستغفار، أو أن يبقى الإنسان ملعوناً مداناً إلى الأبد، بل بالحري هناك أمامه فرص غير محدودة حتى يطور علاقات أقرب مع الرب، والتحكم بالناس والإشراف عليهم أصعب بكثير عندما يؤمنون بأن هناك وسائل كثيرة، وفرصاً متعددة وكثيرة للعودة إلى الرب، وذلك أكثر بكثير من الفرصة التي قدمتها الكنيسة.

واستخف المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي بالاعتقادات والممارسات المتعلقة بفكرة دوران الوقت، وعارضوا الاعتقاد بوجود أيام سعد، وأيام نحس، مثل أنه كان نحساً أن تتزوج أثناء اضمحلال القمر، أو أن الذنب الذي اقترف في يوم مقدس أسوأ من الذنب الذي اقترف في وقت آخر، فالوقت ينبغي أن يسير بشكل متوازن، ووفق خط مستقيم من دون انقطاع أو اضطراب، ومن دون تغيير غير منتظم في الفصول، فستة أيام من العمل ينبغي أن يتبعها دائماً «يوم سابع Sabbath» يكون

يوماً للراحة، وذلك خلال العام كله[56]، وحسبما أعلن صك طهوري بلهجة هجائية معاصرة:

. . إنها حماقة عابرة.

أن تظن أن يوماً أكثر قداسة من يوم آخر. . .[57]

وجرى اختراع الساعة بالرقاص (البندلون) في عام 1657م، كدليل شاهد على الاعتقاد أن الدقائق كانت منتظمة في مرورها واستمرارها، ومع عام 1714م أصبحت الفكرة الجديدة القائلة بالوقت المتوازن ووفق خط مستقيم، عادية ومتداولة بما فيه الكفاية أن رجلاً كتب في إشارة منه إلى الاعتقاد بوجود أيام سعد وأيام نحس، أن «بعض الأشخاص الضعفاء والجهلة يمكن أن يؤمنوا بمثل هذه الأشياء، لكن الناس الذي يفهمون يزدرونهم. .»[58]، وفي هذه الحالة ومع وجود عناصر كثيرة من المسيحية الأرثوذكسية جرى تبني مفهوم الوقت المستقيم من قبل عامة الناس، فقط بعد الإصلاح الكنسي.

الموت:

كذلك أنكرت المسيحية الأرثوذكسية الطبيعة الدورانية للحياة المادية، وهناك نصوص في العهد الجديد تظهر الازدراء لدوران الحياة حيث نقرأ: «ثم عندما يجري تصور الشبق، أنَّهُ يجلب الذنب، وعندما ينتهي الذنب، يجلب الموت ويحضره»[59]، وبتشجيع الاقلاع من ممارسة الجنس، والولادة، والجسد المادي، وصلت المسيحية الأرثوذكسية إلى وضع توجب عليها فيه أن تركز بعناية فائقة على الموت، ليس فقط كأداة لإثارة الخوف، ولكن كنهاية في ذاته.

وفهم اللاهوتيّون المسيحيون ممارسة الجنس، على أنه في أحسن الحالات، مباح، إذا ما مورس فقط من أجل أهداف الإنجاب، أما غير ذلك في أسوأ الحالات، هو ذنب مميت، ومع هذا لقد آمنوا أيضاً أن انجاب مولود هو عمل غير رباني، ورفضت الكنيسة مع أطبائها المجازين، بازرداء ميدان عمل القابلات وكانت المرأة التي تموت أثناء المخاض، أو أثناء الولادة، قد حرمت أحياناً من الحصول على دفن مسيحي[60]، وكانت مدة التطهر، أو «Churching» للمرأة هي أربعين يوماً أو ثمانين بعد الولادة، وقد عدّ هذا ضرورياً من أجل إعادة قبولها في الكنيسة، وفي المجتمع

المسيحي الصحيح، حتى إنَّ العذراء مريم، احتاجت - في أعين بعض الناس - إلى التطهير بعدما جلبت يسوعاً إلى الدنيا.

وشجعت المسيحية الأرثوذكسية الانسلاخ عن الجسد المادي نفسه، وساد اعتقاد أن الحضور الرباني، لا يمكن العثور عليه في العالم المادي، وقد كتب بولص في الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس يقول: «فإذا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد، فنحن متغربون عن الرب»[61]، وأكد الكتاب المقدس أن الحياة ذات المعنى، والحياة الروحية موجودة فقط عندما ينسلخ الإنسان عن الجسد المادي «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون»[62]، «لأن اهتمام الجسد هو موت، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام»[63]، فالحياة المادية متعادلة مع الذنب ومع الانحدار الروحي، بينما ساد اعتقاد أن الموت المادي، وإنكار الحالة الجسدية المادية الجسدية، سوف يجلب حياة روحية.

وكان عدم الاهتمام بالوضع الموائم للجسد المادي هو السمة التي اتسم بها السلوك المسيحي الأرثوذكسي منذ سقوط الامبراطورية الرومانية، عندما أهملت أنظمة قنوات جر المياه، وبيوت الاستحمام، وأحوال الصحة ورعايتها، ونظر إليها نظرة ازدراء، وحاول البروتستانت والكاثوليك الإصلاحيون التباري بين بعضهم بعضاً في إهمالهم للنظافة الجسدية، وذلك حسبما أعلن كاهن أوغسطيني، وشماس لملك بولندا قائلاً:

«اتبع مثل مولانا الرب، واكدَهْ جسدك، إذا كنت تحبه، وجاهد في سبيل فقدانه، فهذا ما تقوله الكتابات المقدسة، وذلك من أجل أن تنقذه، وإذا أردت أن تعقد سلاماً معه، اذهب دوماً وأنت مسلح، وآثر الحرب دوماً وشنها ضده، وعامله مثل عبد، أو أنك سوف تصبح على الفور أنت نفسك عبده غير السعيد»[64].

وفي العالم المسيحي نجد أن كلمة «جسدي» نفسه التي تعني ببساطة «ما يتعلق بالجسد»[65]، نجدها قد أخذت معنى ذنب، وخلود.

وغالباً ما أكد المسيحيون الأرثوذكس على أن الموت لم يكن جزءاً طبيعياً من الحياة، بل كان بالحري عقوبة، وحاجج القديس أوغسطين وقال بأن الموت قد وجد فقط بمثابة عقوبة على الذنب:

«وبناء عليه ينبغي أن نقول بأن الناس الأوائل هكذا خلقوا بالفعل: خلقوا أنهم إذا لم يقترفوا الذنوب، سوف لن يعانوا من أي نوع من الموت، ولكن بما أنهم أصبحوا مذنبين، جرى بناء عليه معاقبتهم بالموت، وصار الحال أن كل من جاء من ذريتهم سوف يعاقب أيضاً بالموت نفسه»[66].

وقال أيضاً:

«.. وبناء عليه هناك اتفاق بين جميع المسيحيين، الذين يتمسكون بالفعل بالإيمان الكاثوليكي، بأننا عرضة للخضوع لموت الجسد، ليس بموجب قانون الطبيعة، الذي قضى الرب بموجبه بعدم وجود الموت بالنسبة للإنسان، ولكن أنزله حقاً بسبب الذنوب..»[67].

ومثلما حاجج أوغسطين وأراد أن يبرهن على أن الذنب قد خلق الرغبة في ممارسة الجنس، لقد اعتقد أيضاً بأن الذنب قد خلق الموت.

وكان الموت في نظر الأرثوذكس ينبغي قهره، وقد كتب بولص في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس قائلاً: «آخر عدو يدمر هو الموت»[68]، ووصف القديس إغناطيوس - أسقف أنطاكية - كيف أن الرسل «قد استخفوا بالموت، ووجدوا وقد نهضوا فوق الموت»[69]، وساد اعتقاد بأن الإيمان المسيحي يشحن الإنسان بالسلطة على الموت، ففي إنجيل لوقا قال يسوع:

«ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يُزَوجون ولا يُزوَّجون إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة»[70].

وعوضاً عن قبول الموت على أنه جزء طبيعي من دورة الحياة، استخدم المسيحيون الأرثوذكس الموت كأداة لإثارة الخوف في الناس، ففي القرن الرابع نصح القديس باخوميوس Pachomius رهبانه قائلاً: «فوق كل شيء، دعونا دوماً نُبْق اليوم الآخر أمام أعيننا، ودعونا نَخَفْ دوماً من العذاب السرمدي»[71]، وأمر قانونَ القديس بندكت Benedict: «عليك الخوف دوماً من يوم الحساب، والخوف من النار، والرغبة في حياة سرمدية دائمة مع حرارة روحانية تماماً، وحافظ على إمكانية الموت دائماً أمام عينيك»[72]، وكان المفهوم القديم للعالم السفلي هو إلى حيث يذهب الإنسان بعد الموت للراحة ولاستعادة الشباب، وقد أصبح هذا المفهوم الفكرة

المسيحية المرعبة حول الجحيم، الذي هو مكان ملئ بالنار، وبحجارة الكبريت المحترقة، حيث يخلد الإنسان في عذاب دائم، وآلام مستمرة، وأصبح الموت، خاصة في إطار أن هناك حياة واحدة، وفرصة واحدة لصنع العمل الصالح، موضوعاً مرعباً متوقعاً.

واحتاجت الكنيسة - على كل حال - إلى وقت طويل، حتى تمكنت من تلقين هذا المفهوم الأرثوذكسي حتى الموت، وأقدمت الكنيسة على جعل المسيحية مفهومة من قبل الناس، بدمج عقائد ما قبل المسيحية وتبنيها، فمفهوم التطهر الذي تبنته الكنيسة في العصور الوسطى، قد لطف من خشونة العقيدة الأرثوذكسية وقسوتها، فعوضاً عن إرسال الإنسان بعد الموت مباشرة إلى الجنة أو إلى الجحيم، صار بإمكان روحه أن تتعرض للتطهر، في موضع وسط بين الجنة والنار، وذلك من أجل أن تقوم بالتوبة، ومن أجل أن تعاقب من أجل الذنوب، قبل الأمل بالسماح لها بالدخول إلى الجنة[73]، وقد تبرهن أيضاً أن هذا المفهوم مربح تماماً بالنسبة للكنيسة، فبتأكيد الكنيسة أنها يمكن أن تؤثر على مصير هذه الأرواح، جمعت كميات كبيرة من أموال مجتمع العصور الوسطى، مقابل خدماتها لصالح الذين كانوا في المطهرة.

ومع انتشار المسيحية الأرثوذكسية خلال حقبة الإصلاح الكنسي، حدث - على كل حال - أن جميع النشاطات التي تعاملت مع الموت على أنه جزء طبيعي من الحياة، قد توجب عزلها وشتمها، وما عاد لأحد أن يعتقد بأن الذين ماتوا، سوف يعرضون على المطهرة، فالناس سوف يحاكمون الآن مباشرة بعد الموت، ومن ثم سوف يرسلون مباشرة ومن دون توقف إما إلى الجنة أو إلى الجحيم، وبات لا يجوز بعد الآن عدّ موت أي شخص على أنه مناسبة مهمة، أو النظر إليه على أنه جزء من دورة الطبيعة، وانتقلت الجنائز من كونها حوادث اجتماعية كبيرة، إلى شؤون أسروية صغيرة[74]، وحاول المسيحيون الأرثوذكس تحريم قرع نواقيس الكنيسة، أثناء الجنائز، مع استخدام ملابس حزن خاصة[75]، وتوجب أن تصبح المقابر - التي كانت من قبل، أماكن لقاءات نشطة - معزولة تماماً عن النشاط اليومي للحياة، وبالنسبة، للرقص، ولأعمال اللعب، والنشاطات التجارية في المقابر، فقد باتت محظورة بشكل آلي[76]، وفي عام 1701م منع قرار صدر في المدن في انكلترا الجديدة،

صنع الأكفان والتوابيت، وحفر القبور، أو إقامة الجنائز في أيام «السبت»، على أساس أن هذه الأعمال تدنس اليوم المقدس[77].

ومثير للدهشة، أن المسيحية الأرثوذكسية في محاولة منها لقهر الموت، وعزله عن الحياة، رعت الانشغال بالموت، وتصور أوغسطين أن الحياة كلها مظللة ومحكومة من قبل الموت: «لأننا ما أن نبدأ بالعيش في هذا الجسد الميت، نأخذ على الفور بالتحرك من دون توقف نحو الموت»[78]، ويمكن للموت - تبعاً للأرثوذكس - أن يجلب الخلاص، وقد كتب أوغسطين:

«ولكن الآن بفضل النعمة الأعظم، والأكبر تقديراً للمخلص، تحولت عقوبة الذنب لخدمة الصلاح والاستقامة، لأنها وقتها سوف يعلن للإنسان: إذا كنت أنت مذنباً، فلسوف تموت، وسوف يقال للشهيد: مت أنت، إنك بلا ذنب، ثم سوف يقال له: إذا كنت قد خرقت الوصايا وخالفتها، فسوف تموت، وسوف يقال له الآن: إنك إذا رفضت الموت، فأنت تكون قد خرقت الوصايا وخالفتها»[79].

ولدى قيام المسيحيين الأرثوذكس ببذل جهودهم لقهر الموت، غالباً ما انتهوا بتمجيده، ذلك أن العمل الأعظم الذي قام به يسوع، هو فهمه أن يكون، وليس معجزاته في الشفاء، ولا رسالته في الحب والسلام، بل بالحري عمله بالموت، فقد ذكر الكتاب المقدس وأكد أن «يوم الوفاة [هو أفضلُ] من يوم ولادة الإنسان»[80]، وأصبح من المعتاد تسمية يوم وفاة الشهيد، بيوم ولادته [أو ولادتها][81]، وحاول أوغسطين أن يوضح لماذا نال الموت مثل هذه السمات السامية بقوله:

«ليس ذلك الموت، الذي كان من قبل شراً، هو الذي أصبح جيداً، بل هو فقط الموت الذي منحه الإيمان هذه النعمة، فذلك هو الموت الذي قبل على أنه مضاد للحياة، وهو الذي ينبغي أن يصبح الوسيلة والأداة التي يمكن بها الوصول إلى الحياة»[82].

وقد كتب القديس جون سيماكوس Cimacus في القرن السابع: «مثلما الخبز هو تماماً الأكثر حاجة بين جميع الأطعمة، كذلك التفكر حول الموت هو الأكثر أهمية من بين جميع الأعمال»[83]، وقد أعلن القديس يوحنا خريسوستوم Chyrsostom أن «السمة الأساسية للمسيحي هي الرغبة بالموت، وحبه»[84]، وأخذ المسيحيون الأرثوذكس بسمة طقوس الموت وتبنوها.

وظلَّلَ الانشغال بالموت، الميول المسيحية نحو الدنيا على اتساعها، وتقدر أن يكون الفهم الأرضي، والحياة المادية معادياً للروحانية التي رعت حماسات تقدمت على نهاية الدنيا، وقد توقع المسيحيون أن يزور الرب الأرض ثانية في القدوم الثاني، مبشراً ومشيراً إلى نهاية الأزمنة، وفي الإنجيل القانوني لمتى، أعطى يسوع الانطباع بأن مثل هذه النهاية باتت وشيكة الحدوث، حيث قال: «الحق أقول لكم إن من القيام هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته»[85]، وكانت الموجات خلال المدد الزمنية في توقع تدمير العالم علامة رئيسية للتاريخ المسيحي، ففي انكلترا - على سبيل المثال - جرى أيام الإصلاح الكنسي نشر ثمانين كتاباً حول موضوع نهاية الدنيا[86].

وغيرت المسيحية الأرثوذكسية طريقة تفكير الناس حول الأرض، وحول المحيط الطبيعي، فعندما ساد الاعتقاد بأن الرب يحكم من الأعلى، فهمت الطبيعة على أنها بعيدة عن الرب، إن لم تكن منفصلة عن حضوره، وقاد مثل هذا الرأي والتصور إلى تغييرات هائلة في معنى أيام العطل، وفي سمات أيام العطل هذه، وفي تصور الوقت، وأدى هذا كله إلى الانسلاخ عن دورات الأرض الموسمية، أما أوجه الحياة البشرية التي تتحدث عن العلاقة بالدورات الموسمية، مثل الولادة، وممارسة الجنس والموت فقد جرى الاستخفاف بها وإهمالها، وعوضاً عن أن تقوم المسيحية الأرثوذكسية بتقدير دورات الحياة الطبيعية، أنكرت هذه الدورات إنكاراً كاملاً، وأصبحت مشغولة بالموت.